وجه اللّه في أشعيا ٥٦-٦٦

الأخت روز أبي عاد
أستاذة مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس – الكسليك

المقدّمة

قبل الشروع في إظهار وجه الله الذي يعكسه القسم الثالث من سفر أشعيا (٥٦-٦٦)، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ علماء الكتاب المقدّس يتّخذون ثلاثة مواقف متباينة حوله:

- فمنهم مَن يعتبره أنّه كناية عن نصوص متفرّقة في ما يخصّ الكاتب والتاريخ، وقد جمعت لتشكّل فسيفساء مركّبًا من نصوص متنوّعة على مستوى التعبير والأسلوب[١]؛
- ومنهم مَن يعتقد أنّ الفصول ٥٦-٦٦ كُتبت بيد مؤلّف الفصول ٤٠-٥٥، علمًا أن الظروف التي يكتب فيها الآن تتعلّق بتحقيق العودة من المنفى وبمعضلات الإقامة ثانية في الأراضي المقدّسة[٢].
- ومنهم[٣] مَن يرى أنّها كُتبت بيد أحد تلامذة مؤلّف أشعيا الثاني[٤]، بحيث يحاول الكاتب أن يكون أمينًا لمعلّمه، رغم أنّه يواجه ظرفًا مختلفًا عمّا كان عليه سابقه؛ ففي حين أن كاتب أشعيا الثاني كان يمارس وظيفته في بابل، وسط جماعة المنفيين، يمارس كاتب أشعيا الثالث خدمته في أورشليم، وسط جماعة تواجه صعابًا جمّة لتجدّد قواها وتنهض بعبئها إثر منشور قورش الذي سمح لها بالعودة إلى الوطن الأم.

أيًا كان كاتب أش ٥٦-٦٦، ما يهمّنا هو تسليط الأضواء على الظروف الحياتية التي يعيشها النبي وجماعته، للوصول بها إلى استخلاص دور الله ووجهه الذي يتجلّى لهم[٥].

أ- الرب مصدر التعزية

بالرغم من النداء والكتابات التي

(١) راجع مثلاً A. LODS, *Histoire de la littérature hébraïque et juive*, Paris 1950, 509-516

(٢) راجع مثلاً W. ZIMMERLI, "Zur Sprache Tritojesajas", in *Gottes Offenbarung, Gesammelte Aufsätze*, München 1963, 217-233.

(٣) راجع مثلاً K. ELLIGER, *Die Einheit des Tritojesaja*, Stuttgart 1928; Id., *Deuterojesaja in seinem Verhältnis zu Tritojesaja*, Stuttgart 1933, 278-303; W. KESSLER, *Gott geht es um das Ganze, Jesaja 56-66 und 24-27*, Stuttgart 1960, 175 p.; D.R. JONES, *Isaiah 56-66 and Joel*, London 1964, 190p.

(٤) المقصود به كاتب أش ٤٠-٥٥.

(٥) لكي نتمكّن من إبراز الخطوط الكبرى لدور الله، علينا أولاً أن ننوّه إلى الحقبة التاريخية التي تجري فيها أحداث هذه الفصول؛ فهي تلي العودة من السبي البابلي أي التي تمتدّ منذ سنة ٥٣٨ ق. م. إلى ما بعدها، تاريخ اتخاذ قورش، ملك فارس، التدابير لصالح اليهود، إذ أثار الرب روحه فأطلق مرسومًا في مملكته سمح به لليهود أن يعودوا إلى أورشليم وأن يبنوا فيها بيتًا للرب.

أطلقها قورش والتي يدعو فيها المجلوّين للعودة إلى أورشليم ولإعادة بناء بيت الرب فيها (عز ١: ١-٦)، وبالرغم من التسهيلات التي منحهم إيّاها بحيث أخذ على عاتقه نفقة البناء (عز ٦: ٤، ٨-٩)، فلم يُنجَز في المرحلة الأولى من تاريخ العودة سوى بناء مذبح ليُصعِد عليه الشعب المحرقات (عز ٣: ٢-٣).

من ناحية أخرى، فالمشاكل التي تواجه العائدين من المنفى لا يستهان بها، إذ، من جهة، تعترضهم مسائل إرجاع الدوائر المهجورة إلى موضعها، أو إعادة تشغيل المراكز المسلوبة خلال غيابهم الطويل، ومن جهة ثانية، فالسكان الذين لم يغادروا أرضهم والذين لا شك في تورّطهم في عبادة الآلهة الوثنية سيواجهون حتمًا حميّة العائدين، وسينظرون بعين شريرة إلى هؤلاء القادمين الذين يطالبونهم بحقهم في ملكيّة قديمة[٦].

ممّا تقدّم نستنتج أن الله يتوجّه إلى جماعة مكوّنة من خليط من الفئات (رج عز ٢؛ نح ٧). هذا التباين يظهر جليًا بين الغيرة الدينية للعائدين من المنفى، وعبّاد الأصنام الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسه. أضف إلى الفئات التي ذُكرت فئة الغرباء الذين استقرّوا في اليهودية أثناء حقبة المنفى[٧]، وأخيرًا فئة يهود الشتات الذين لا يغيبون قط عن فكر النبي أشعيا.

في خضم العوائق التي تفرضها إعادة الإقامة من جهة، والخليط السكّاني من جهة أخرى، نرى الله يشهد على حقيقة رسالة النبي، فيمسحه بروحه، ويكلّفه تعزية منكسري القلوب (رج أش ٦١: ١-٣)، لأنّ الرب بعد أن يرسل نبيَّه لتمهيد الطريق للعائدين من شعبه (٥٧: ١٤)، سيضمّ إليهم، في نهاية المطاف، شعوبًا آخرين (٥٦: ٨؛ ٦٢: ١٠).

ب- الرب المخلص

بالرغم من أنّ استمرارية بني إسرائيل في المثابرة على الخطيئة تؤول إلى تأخير الخلاص[٨]، فإنّ خلاص الله آتٍ لا محالة، إذ إنّه سيحوّل أورشليم، المدينة المهجورة، إلى "فخر الدهور" (٦٠: ١٥) لتعلم أنّ الرب هو مخلّصها وفاديها، الذي يقضي على العنف في أرضها، ويضع حدًا للمناحة، ويُقيم حرّاسًا على أسوارها، فيتنعّم أبناؤها بخيراتها ويسبّحوا الرب[٩]. هذا الخلاص قائم على كَرَم الله الثابت الذي لا ينتظر مَن يدعوه ليتدخّل بل يعتلن لمن لم يسألوا عنه.

ج- الرب المرحِّب بجميع الشعوب

من بين أوجه الرب التي تتجلّى في أش ٥٦-٦٦، هو أنّه سيأتي بالغريب والخصيّ إلى جبل قدسه، ويفرّحه في هيكله، ويرضى بمحرقاته وذبائحه. إنّه الرّب الذي، بدعوة منه، يفتح بيته لجميع الشعوب، لتأتي وترى مجده وتسجد له، لا بل سيتّخذ منها أيضًا كهنة ولاويين لخدمته[١٠].

إنّه الرب الذي سيحوّل الشعب المبعثَر إلى جماعة موحّدة، لا بل إلى شعب متّحد. ربّما لا نجد في أيّ مكانٍ آخَر تحديدًا أجمل ممّا يلي في ما يخصّ دور هيكل أورشليم الذي سيُدعى "بيت صلاة لجميع الشعوب" (٥٦: ٧). بهذا، يخطو أشعيا خطوة جبّارة نحو الشمولية الدينية، إذ من الآن فصاعدًا لم يعد الانتماء إلى

(٦) رج أش ٥٧: ٣-١٣؛ ٥٩: ١٣، ٢٠؛ ٦٥: ٨-١٦؛ ٦٦: ١٤-١٧.
(٧) رج أش ٦٠: ١٠؛ ٦١: ٥.
(٨) رج أش ٥٦: ١؛ ٥٧: ٢، ١١؛ ٦٢: ١؛ ٥٨: ٣؛ ٥٩: ١، ٩، ١١، ١٤؛ ٦٠: ١٥؛ ٦٢: ٤، ٨؛ ٦٥: ٢٢؛ ٦٣: ٧، ١١، ١٥، ١٧، ١٩.
(٩) رج أش ٦٥: ١؛ ٥٧: ٢؛ ٦٠: ١٥-٢٢؛ ٦٢: ٤-٩؛ إلخ.
(١٠) رج أش ٥٦: ٣، ٥-٧؛ ٦٦: ١٨، ١٩، ٢١، ٢٣.

الشعب الإسرائيلي هو الضمان للخلاص، بل إنّ الله يريد أن يجمع "جميع الأمم والألسنة" (٦٦: ١٨) حول أورشليم، جاعلاً منها مركز جاذبية للكون بأسره.

د- الرب الذي لا مثيل له

تعود فرادة الله (٦٤: ٣) إلى كونه المتسامي، العلي، الرفيع، ساكن الخلود، الذي قدّوس اسمه (٥٧: ١٥). أن نقول إن الله قدوس، يعني أنّه يختلف كليًا عن البشر؛ ففي حين يتّضح أنّ هؤلاء هم أسرى محدوديتهم، يبدو هو، عكس ذلك، أي الذي كان، والكائن الآن، والذي سيكون إلى أبد الدهور (٤٥: ١٧)، ولا يمكن أن يحدَّه أيّ زمان أو مكان، ولا يمكن أن يقيّده أي فكر أو قلب، لهذا السبب هو ساكن الخلود.

بالإضافة إلى تسامي الله وتعاليه وقدسيّته، تكمن فرادته في كونه الفادي الذي "يعمل للذين ينتظرونه" (٦٤: ٣).

هـ- الرب الخالق

يدًا الرب صنعتًا السماء عرشًا له والأرض موطئًا لقدميه (أش ٦٦: ٢). من هنا، فالذبائح التي تقدّم للرب ليست تقادم يجود بها الإنسان لله، بل هو يقدّم لربّه ما سبق الخالق ووهبه لمخلوقه، وبهذا فالإنسان لا يقوم إلاّ بفعل شكر لسيّد الخليقة كلّها.

هذا الإله الخالق هو خلاّق لأنّه لا ينفكّ يخلق الجديد. على سبيل المثال، هو يخلق سماوات جديدة وأرضًا جديدة (٦٥: ١٧؛ ٦٦: ٢٢). وبهذا الخلق، لا يعود الله يذكر الماضي ولا تعود تخطر على باله كلّ الحوادث السالفة (٤١: ٢٢)، بل تتوارى كلُّها عن عينيه. أن يخلق الله سماوات جديدة وأرضًا جديدة لا يعني أنّه يُفني ما يوجد ليُنشئ منها مخلوقات جديدة، بل إنّه يغيّر العالم الحاضر ليقيم طريقة حياة أفضل.

في إطار فعل الخلق الذي يقوم به الله، يندرج خلق التسبيح الفرح على شِفاه الخطأة الذين شَفاهم (٥٧: ١٩)؛ فالشِفاه الخرساء أو المفتوحة قليلاً والتي لا تصدر منها إلاّ الشكاوى، سيجعلها الرب تتفتّح على كلّ جديد، سيخلق منها تسبيحًا مملوءًا الحياة، عذبًا، مغذيًا، طيّب المذاق. إنّه يأتي ليزوّد سلامًا مزدوجًا، ويأتي ليزوّده للجميع، كما للبعيد كذلك الأمر للقريب.

من أعمال الله الخالق، تُذكَر أورشليم الجديدة وشعبها. هذه المدينة الدينية ستمتلئ طربًا وابتهاجًا، بفضل تعزية الرب وتشجيعه لها وبسبب سرور شعبها، وبدورها ستكون مصدر حميّة وابتهاج يسرّ بها إلهها (٦٢: ٥)، وتفخر بها كلّ الأجيال لدهر الدهور (٦٠: ١٥).

و- الرب العادل

غالبًا ما يرادف مفهوم عدل الله خلاصه الذي يقوم على أمانته المطلقة لمحبته ورحمته في آنٍ معًا. فإنّه، إذ لم يعد يوجد في جماعة معاصريّ الكاتب أيّ أحد مِمَّن "يدعو بالعدل أو يحاكم غيره بالصدق" (٥٩: ٤)، فُقِد السلام لأنّ الخطأة سلكوا السبل الخالية من الحق فجعلوا دروبهم معوجّة" (٥٩: ٨)، فكانت النتيجة أن "ارتدّ الحكم إلى الوراء ووقف البرّ بعيدًا وصار الحقّ مفقودًا" (٥٩: ١٤-١٥)، والمُعرِض عن الشرّ غدا مسلوبًا (٥٩: ١٥). لحسن الحظ رأى الرب فساءَ في عينيه أن لا يكون هنالك عدلٌ (٥٩: ١٥)، لأنّ الخطأة "صنعوا الشرّ في عينيه واختاروا ما لا يرضى به" (٦٥: ١٢؛ ٦٦: ٤)، والأسوأ من ذلك هو أنّ الربّ "رأى أنّه ليس هنالك إنسان ليتدخّل فدهش" (٥٩: ١٦)، واضطرّ لأن يتدخّل بذاته ليواجه الظلم.

تجاه الجور، يتدجّج الربّ بالسلاح وكأنّه محارب يتأهّب لخوض المعركة، "فيلبس البرّ كدرع، ويضع خوذة الخلاص على رأسه، ويرتدي ثياب الانتقام لباسًا، ويتجلبب بالغيرة رداء" (٥٩: ١٧). هذه العتاد التي يتمنطق بها الرب، إن اتّخذت مظهر الرعب للظالمين، فإنّها تشكّل مصدر الطمأنينة للمظلومين. الله العادل "سيُجزي كلّ إنسان حسب أعماله،

فالغضب لخصومه والانتقام لأعدائه" (٥٩: ١٨)، والفداء "إلى الراجعين عن المعصية" (٥٩: ٢٠). عدل الرب يتّسم بالشمولية، فهو لا يفرّق بين المغرب والمشرق (٥٩: ١٩). قضاء الله العادل سيُجري تحوّلاً جذريًا، يبدأ باستبدال النحاس بالذهب والحديد بالفضة والخشب بالنحاس والحجارة بالحديد، إلى أن يصل إلى استبدال التعسّف بالسلام والطغيان بالعدل (٦٠: ١٧).

الرب العادل يصفه أش ٦٣: ١ بالجبّار القادر على الخلاص؛ إنّه المتباهي بلباس المصارع، المختال بكثرة قوّته. هذه الأبّهة للرب العادل، تسلّط الأضواء على دينونته الشاملة "لأنّ الربّ بالنار والسيف يحاكم كلّ بشر" (٦٦: ١٦)[١١].

يكشف عدل الله فساد العدل الذي يمارسه البشر لدرجة أن "لا أحد يدعو بالعدل أو يقاضي غيره بالحق" (٥٩: ٤)، ولقد ظهر مكر البشر بيّنًا في القضايا التي تتعلّق بالمحاكم، فهم "يتّكلون على الخواء وينطقون بالباطل، يحبلون بالظلم ويلدون الإثم" (٥٩: ٤).

ز- الرب المحب

الرب يحب شعبه لدرجة الشفقة (٦٣: ٩). هو لا ينفكّ يكافئه بكثرة خيره، يذكره بحسب مراحمه وكثرة نعمه. حنانه الأبوي لا يكتفي باعتبار أبناء يعقوب كشعبه بل يدعوهم "أبناءه" (٦٣: ٩). هو لا يتوقّف لحظة عن الاعتناء بهم، خاصة عندما يكونون في حالة الانسحاق والاضطرابات. ما من شيء يمنع الرب من الاقتراب من أبنائه، لا بل فإنّ سموّه هو الذي يحمله على الانحناء عليهم. يذهب النبي أشعيا (٥٧: ١٥) إلى أبعد من ذلك، إذ يجعل الرب يسكن مع المنسحق والمتواضع الروح ليُحيي أرواح المتواضعين وقلوب المنسحقين.

ح- الرب الذي لا يذكر الإثم

خطايا الشعب التي يقترفها أمام الرب عديدة، فهم لا يعرفون الشبع، وكلٌ واحد يميل إلى مكاسبه (٥٦: ١١)؛ هم عصاة (٥٧: ١٧؛ ٥٩: ١٣) ويعاملون عمّالهم بقسوة (٥٨: ٣)؛ ينتهكون السبت (٥٨: ١٣)؛ أكفّهم ملطّخة بالدم، وأصابعهم بالإثم، وشفاههم تنطق بالكذب (٥٩: ٣؛ ٦٤: ٥-٦)؛ كَذَبَة، ظالمون (٥٩: ٤، ١٣)؛ أفعالهم أفعال عنف، وأرجلهم تسعى إلى الشر وتسارع إلى سفك الدم البريء؛ أفكارهم أفكار الإثم، وفي مسالكهم دمار وتحطيم (أش ٥٩: ٦-٧). ولكن، بالرغم من كلّ هذا، فطيبة الرب تتجلّى في إعلانه الخلاص، هو الذي قد غضب لأجل الإثم، لن يتشبّث بغضبه على الدوام بسبب ضعف الإنسان وهشاشته، بل يؤكّد أنّه سيهبه الغفران من خلال شفائه وهدايته وتعزيته. وبهذا، فمسامحة الرب للإنسان لا تقتصر فقط على محو الخطايا، بل تطال إرجاع "صحة" أفضل له. وبالتالي، فالخلاص الذي يحمله للإنسان يطاله في كليّته (٥٩: ١٤-١٩).

الله لا يتوانى لحظة عن الاهتمام بشعبه، وبنوع أخصّ عندما تفتّته المحن. فرغم أنهّ متسامٍ، أو بالأحرى بما أنّه متسامٍ، فلن ينفكّ يقف بالقرب من أولاده. صحيح أنه يسكن في العلاء، بمعنى آخر أنّه يتجلبب بالقداسة، وبالتالي يفوق البشر بكثير، لكنّه يتخطّى نطاق الزمن والمسافة بغية أن يسكن مع المنسحق والمتواضع الروح ليُحيي قلبه وروحه (٥٧: ١٥).

مسامحة الرب لها مفعول شفائي، وهي تطال البعيد والقريب دون أدنى تمييز (٥٧: ١٩).

ط- الرب الذي يمنح البهاء

عندما يرجع الشعب عن معصيته ويستقبل خلاص الرب (٥٩: ٢٠)،

(١١) إذا كان كاتب أش ٥٦-٦٦ يشدّد على شموليّة دينونة الله فهو يريد أن يحذّر أتقياءه من الضلال ويجذب العصاة إلى التوبة.

يعود الرب ويجدّد عهده معهم، فيُفيض من جديد روحه عليهم ويجعل كلامه في أفواههم (٥٩: ٢١)، ويكون أنّ بهاءهم سيسطع جليًا لأنّ نور الرب قد وافى ومجده قد تراءى. لن يكتفي الرب بأن يُشرق بنوره على المستقبلين خلاصه، بل سيتحوّل بدوره إلى شمس لا تغرب وإلى قمر لا ينقص، ويكون نورًا أبديًا للمستنيرين به (٦٠: ١٩-٢٠). والأعجب من هذا هو أنّهم بذاتهم سيعكسون هذا البهاء على الأمم، ويتحوّلون بدورهم إلى منارة ستخلب سائر الشعوب بضيائها، فتسير باتّجاهها حاملةً إليها ثروتها وغناها (٦٠: ١-٥).

لا يكتفي الرب بأن يحوّل مدينة الراجعين عن معصيتهم إلى مركز شعاع يتألّق بهاء، بل يجعل الأمم تحمل إليها الذهب والبخور والإبل والبُكران والغنم والكباش وكلّ غناها (٦٠: ٦-١٧)، فتصير "فخر الدهور وسرور جيل فجيل" (٦٠: ١٥).

الخاتمة

كانت هذه بعض ملامح وجه الله الذي يظهر في أش ٥٦-٦٦ أنّه المثابر في المحبة، الجادّ في سبيل الخلاص، القويّ الذي يُسبَّح والإله الذي يُبدي الشمولية في دعوته البشرية جمعاء لتأتي وتعبده، ولكن هذه الدعوات الملحّة بحدّ ذاتها تأخذ طابَعًا مأساويًا بسبب خطيئة الإنسان وكون كلّ البشر دون استثناء يتوجّهون إلى لقاء الله ليلقوا الثواب أو العقاب تبعًا لما يستحقّونه.

يبقى أنّه على سامعي أو قرّاء أشعيا أن يختاروا بين موقفين: إمّا أن يستجيبوا لمودّة الله ليحظوا بالسعادة، أو أن يرفضوها ليلقَوا المشقّة. من الطبيعي أن يوقظ الله فيهم الترحيب والشكر والحميّة[١٢]. خِدمة الرب تلحّ بشدّة على الأمانة للتصرّف الخلقي الحسن، ولكن تلحّ بالطريقة عينها على الأمانة للاحتفالات الطقسية الحقيقية. فالهيكل يُذكر اثنتي عشرة مرّة[١٣]، والجبل المقدّس خمس مرّات[١٤]، والمفردات التي تُشير إلى الأعمال الطقسية تكثر جدًا[١٥].

أخيرًا، إنّ وجه الله الذي يظهر في أش ٥٦-٦٦ هو الإله الذي يتعامل مع الإنسان روحيًا وأخلاقيًا ويطلب منه إقامة علاقة على مستوى هذين البُعدين المتكاملَين والمتلازمَين.

المراجع

BONNARD, P.-E., *Le second Isaïe,* Coll. Etudes bibliques, Paris 1972.
ELLIGER, K., *Die Einheit des Tritojesaja*, Stuttgart 1928.
___, *Deuterojesaja in seinem Verhältnis zu Tritojesaja*, Stuttgart 1933.
JONES, D.R., *Isaiah 56-66 and Joel*, London 1964.
KESSLER, W., *Gott geht es um das Ganze, Jesaja 56-66 und 24-27*, Stuttgart 1960.
LODS, A., *Histoire de la littérature hébraïque et juive*, Paris 1950.
ZIMMERLI, W., "Zur Sprache Tritojesajas", in *Gottes Offenbarung, Gesammelte Aufsätze*, München 1963

(١٢) يعبّر عن الترحيب بأفعال "رجع إلى الرب" أي حاد عن الخطيئة واستدار صوب الله قصد البحث عنه والإصغاء إليه والتمتّع بإلفته واللجوء إلى كنفه. أمّا الشكر فيتجلّى في الدعوة إلى تسبيح الرب وتمجيده وتعظيمه والابتهاج به والتهليل أمام خيراته. وأخيرًا تُترجم الحميّة بعبارات "خشية الرب" و "مخافته" (٥٧: ١١؛ ٥٩: ١٩؛ ٦٣: ١٧؛ ٦٤: ٢)، و"الرعدة من كلمته"، وهذا لا يعني الإرهاب أمامه ولكن الشروع بحماس للإجابة على نداءاته، مع تجنّب إزعاجه والسعي إلى إرضائه مهما كان الثمن (٦٦: ٢، ٥).

(١٣) رج مثلاً أش ٥٦: ٥، ٧؛ ٦٠: ٧؛ ٦٤: ١٠؛ ٦٦: ١، ٢.

(١٤) رج أش ٥٦: ٧؛ ٥٧: ١٣؛ ٦٥: ١١، ٢٥؛ ٦٦: ٢٠.

(١٥) رج مثلاً أش ٥٦: ٢، ٤، ٦، ٧؛ ٥٨: ٣، ٤، ٥، ٦، ١٣؛ ٦٠: ٦، ٧، ١٨؛ ٦١: ٦، ١١؛ ٦٣: ٧؛ ٦٦: ٦.